فقال الشاب وما سبب نزاعهم وخصامهم

فقال الشيخ : انت ترى يا بنيَّ ان هذه المدن ثلاث . فاحداها تُدعى مدينة المال لان اهلها كلهم يشتغلون بجمع المال . والثانية تدعى « مدينة العلم » لان اهلها كلهم يشتغلون بالعلم . والثالثة تدعى « مدينة الدين » لان اهلها كلهم منقطعون الى الدين . وقد حدث هذا الانقسام على ما ترى منذ زمن بعيد . فان اولئك الفتيان والفتيات الذين اسسوا هذه الجمهورية الصغيرة بعد اشتغالهم بزراعة الارض واتقان المصنوعات اصابوا نصيباً من الثروة والسعة . فلما تزاوجوا وتكاثروا جاء ابناؤهم ارقى منهم واكثر ميلاً الى الشؤون النفيسة . فعكف بعضهم على التجارة وبعضهم على العلم وبعضهم على الادب وبعضهم على الدين — كل بحسب استعداد نفسه وقابليتها . فلم يمر زمن طويل حتى قام النزاع بينهم على ساق وقدم . فارتأى بعض منهم زيادة في توسيع المعيشة على السكان ان ينشئوا بلدتين اخريين قريبتين من البلدة الاصلية . ثم رغبةً في حصر النزاع في مكان واحد او منعاً للنزاع قرروا ان تسكن كل طبقة في بلدة . فطبقة المال تسكن في البلدة الشرقية وطبقة العلم في البلدة الغربية وطبقة الدين في البلدة الجنوبية . ولكنَّ هذا التدبير قد ذهب سدى بلا جدوى لانَّ النزاع ما زال قائماً بينهم

الفصل الثاني

الحب

في قلب لم يعرف الحب

وكان الشاب الذي القى على عمه الشيخ تلك الاسئلة في نحو الثلاثين من العمر وقد جاء سائحاً لمشاهدة هذه المدن الثلاث التي سمع بها من بلده . وكان رجلاً قد درس علوم المتقدمين والمتاخرين ووقف على المبادىء القديمة والحديثة وصار يطلب ضالته بينها على غير فائدة . فلا المدنيات القديمة كانت تعجبه لان حقوق الضعفاء كانت مهضومة فيها وبناءها قائم على القوة والعنف . ولا المدنيات الحديثة كانت ترضيه لانها جعلت الحياة عراكاً هائلاً وجهاداً عظيماً بين الناس . وكان وهو في المدرسة قد لمح في ذهنه عصراً يسميه مؤرخو اليونان العصر الذهبي ويسميه كتاب المسيحية عصر الفردوس الارضي فبقي منه في فكره

اثر كان يحضر فيه كلما رأى زحام الحياة وجهادها بين افرادها . فلما سمع بهذه المدن الثلاث ومعيشة سكانها في وسط الطبيعة معيشة خالية من ادران الاجتماع ورذائله خيل له انها بداية العصر الذهبي الموعود به الانسان في الارض (١) فقال في نفسه : فلنذهبن لمشاهدة تلك البقعة التي ابتدأ بها العصر الذهبي فانه قد آن للانسانية في الارض ان تصل اليه وتجد شيئاً من الراحة بعد جهاد القرون الماضية

لكن لما سمع الشاب ما حدثه به الشيخ عن نزاع تلك المدن الثلاث سقط امله وخاب ظنه . على انه كان من الذين يستفيدون من كل شيء . فقال في نفسه : انني مولع بدرس كل ما له علاقة بتنازع المال والعلم والدين . فربما قدرت في هذه المرة على اكتشاف اسرار جديدة بهذا الشان . بل ربما كان تنازع هذه المدن الثلاث المنصوبة احداها تجاه الاخرى كمنجانيق للحرب مؤدياً الى حل لهذه المشكلة القديمة

وبينما كان الشاب يفكر في هذه الامور واذا سأله الشيخ : متى تدخل الى هذه المدن يا ولدي حليم . فاجاب الشاب : سادخلها غداً . فقال الشيخ وهل تعرف فيها احداً يا بني . فتنهد حليم واجاب مبتسماً كلا . فقال الشيخ : لقد رابني في جوابك شيئان . تنهدك وابتسامك فاصدقني . فزاد حليم في الابتسام وقال : وما يمنع من ان اصدقك لو كنت اعرف فيها احداً

الا ان حليماً لبث بعد هذا الجواب مبهوتاً . وقد تنهد هذه المرة تنهداً لم يدع عمه الشيخ يشعر به وشخصت عيناه حينئذ الى المدينة الشرقية — مدينة المال . ثم انتقلت من مدينة المال الى حديقة واقعة تجاه القرية على شاطئ النهر عند مدخل السهل . ولما وقع نظره عليها اغمض عينيه كما يغمضها من لا يريد ان ينظر ما امامه او من يريد ان ينظر في داخله صورة نفيسة تخبوءة فيها . وكان غرض حليم الامرين معاً

وكان مع حليم رفيق اكبر منه سناً واضخم منه جسماً . فلما شاهد حركاته هذه ابتسم له . فتوردت وجنتا حليم لهذا الابتسام لانه فهم معناه . فخشي رفيقه ان يكون قد اساء اليه بهذه الاشارة فمال نحو اذنه وهمس فيها قائلاً على سبيل المداعبة : اما تظن ان العصر الذهبي قد ابتدأ

فازدادت حمرة جميل واجاب صديقه ضاحكاً : مهما كان في عبارتك من التهكم فانها مقبولة لانها اختراع جميل

فقال له صديقه على سبيل المداعبة ايضاً : انت اجمل يا صاح . ولكن لا تلهِ نفسك

---

(١) ملكوت الله

الآن بهذا الكلام عن الامور المهمة — ثم اشار نحو الطريق

فلفت جميل نظره الى حيث اشار صديقه فتمشى قلبه في صدره لمنظر رآه بعيداً . ذلك انه شاهد خمسة جياد عليهن خمس فتيات يركضن عليهن خبباً . فطار نظره في الحال الى التي تلبس ثوباً ابيض بينهن . فرآها تسير في الوسط وهي اخفهن حركة وجوادها اسرع خطىً . فلبث شاخصاً نحوها . اما صديقه فتركه في مناجاته ولم يزعجه هذه المرة بالمزاح الثقيل لانه كان يعلم ان النفوس الحساسة المخلصة لا تطيق المزاح احياناً في بعض الاشياء . ذلك ان المزاح سهمٌ يخدش دائماً وان كان خدشه خفيفاً . والرجل الكريم يغار على ما هو نفيس عنده ومحبوب ان يُخدش حتى بوردة . ومن الغريب ان سوءالاً واحداً كان في تلك البرهة يشغل فكر حليم وفكر صديقه معاً . وهذا السوءال هو . هل تلتفت الفتاة الى النافذة ام لا . الا ان حليماً كان يشك في التفاتها . واما صديقه فانه كان على يقين منه . ذلك لانه راى منها في البستان الذي شاهداها فيه مع رفيقاتها قبل وصولها الى هذه القرية ما لم يرَه حليم منها . وكانت علمة انهما سينزلان في ذلك المنزل . ولكن مع ذلك صدق ظن حليم وخاب ظنه هو . فمرّت الفتاة مع رفيقاتها في الطريق البعيدة دون ان تلتفت الى النافذة

وكان حليم شاباً كريماً . وكان قد صرف عمره في مطالعة الكتب وانتقاد احوال الاجتماع . ومن سوء حظه لم تعرض في طريقه فتاة تريه خطأ ذلك الانتقاد . ولذلك كان حليم الى تلك الساعة بلا حب . ولكن لا يجب ان يُستدل بهذا القول على ان قلبه كان جامداً كالحجارة ولذلك لم يتحرك قبل الان . كلا . ان قلب حليم كان بسلاسة الماء ولطف النسيم ولين الشمع . ولكنه لم يكن يجد في طريقه من تقدر ان تؤثر عليه وتحرك هذا القلب . فهل الذنب ذنبه في هذا الامر ام ذنب الناس . وكيف تريدون من النار ان تشتعل اذا لم يكن هنالك حرارة الاشعال او من الحديد ان يُجذب اذا لم يكن هنالك مغناطيس للجذب . وقد كان يُقال له احياناً : كيف يمكن ان تحب وتتزوج اذا بقيت بعيداً عن الناس كما انت . هل الحب هواء يطير ويدخل في الاجسام ليأتيك وانت بعيد عنه بين المحابر والالوان والاقلام . كلا . اذاً فعاشر وساير ان رمت ان تحب . اما هو فقد كان يجيبهم باسماً : انني من الذين يقرأون الرسالة من العنوان ويعرفون الشجرة من الثمرة . فانا في وادٍ ونساؤكم وبناتكم في وادٍ . على انني لست الوم النساء اذا لم يفهمن اخلاقي وعواطفي ما دام الرجال انفسهم لا يفهمونها . فالانفراد عن هذه الهيئة الباطلة الكاذبة التي نعيش

فيها غير مبالين بها ولا بمسراتها ولا بآمالها — لانها تختلف عن مسراتنا وآمالنا — خير من الانضمام اليها وسريان عدواها الينا

ولذلك كان حليم يقابل السيدات بلا مبالاة ولا مجاملة كما يقابل الرجال . وبينما كنت ترى جميع الشبان في الحفلة يطوّفون بكراسيهم اجمل السيدات والبنات و يبذلون جهدهم في خدمتهن كأنهم كلاب صيد لاشان لهم في الجلسة الا احضار ما يطلبنه اوندامى لا غرض لهم الا بسطهن وتسليتهن — كنت ترى حليماً جالساً في زاوية يضحك من اولئك وهئولاء ويتسلى بمراقبة الحركات الباردة والكلمات الشاردة والنظرات المجاهدة — وعند كل واحدة منها كان يضحك في نفسه و يقول : ما اكذبك ايها الانسان

ولكن لما قدم حليم في هذه المرّة الى هذه القرية قاصداً السياحة في المدن الثلاث ووجد في طريقه قبل الوصول الى القرية تلك الفتاة بين رفيقاتها — تغير وجه المسالة في نظره . والغريب ان هذا الوجه قد تغيرّ بلا سبب مغير اي من غير ان يحادث حليم هذه الفتاة ويختبر اخلاقها ليعرف ما وراء جمالها وهل هي ارقى من بنات بلده حقيقة لتستحق ميله وحبه . فهل ترى كان ذلك التغيير من تاثير السفر على الاخلاق لانه يهيئها لقبول كل تاثير يعرض لها لانها تكون في حاجة اليه في غربتها ؟ ام ذلك لميل النفوس دائماً الى البعيد ونبذها القريب المالوف طبقاً لقول العامة « الدير القريب لا يشفي » ؟ ام ذلك لان عواطفه المضغوطة في قلبه قد وجدت هذه المرة منفذاً ففاضت رغماً عنها اذ طال بها عهد انتظار الحب وهو لا يأتي ؟ ام ذلك لان علم حليم بان تلك الفتاة من احدى المدن الثلاث قد جعل لها في نفسه مكاناً سنياً في الحال فنظر اليها بعين الكمال بعدان كان ينظر الى بنات جنسها بعين النقص ؟ ام ذلك لان كهربائية حليم وكهربائية الفتاة قد اتحدتا لاول نظرة لانهما خلقا ليتحدا معاً طبقاً لاعتقاد بعض المتقدمين بان الله يصنع النفوس انصافاً انصافاً وان الحب هو عبارة عن وجود النفس نصفها الثاني المكمّل لها ؟